

2021

يحيى أوتغوفت قائد جسد الوجود البرتغالي في مغرب القرن السادس عشر

عبد الله استيتو

أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب
a.stitou@uiz.ac.ma

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

"يحيى أوتغوفت قائد جسد الوجود البرتغالي في مغرب القرن السادس عشر" *Dirassat*: Vol. 23 : No. 2 , Article 6.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol23/iss2/6>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *Dirassat* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

يحيى أوتحفوفت

قائد جسد الوجود البرتغالي في مغرب القرن السادس عشر

عبد الله استيتو

أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر أكادير

Abstract

This article deals with the life of the leader Yahia Outaafuft in the fields of Abda and Doukkala at the end of the 15th century and the beginning of the 16th century. And how he went from a simple merchant to a strong military and political personality, with links of loyalty and obedience to the Portuguese King Manuel I, and in the service of the Catholic Church, by implementing the Christian project in Morocco; While this leader resembled the sultans, and aspired to seize power in Marrakech after Portuguese King Manuel I decorated him with a high military medal in Lisbon, and how the emerging Saadian power in southern Morocco has been able to eliminate this leader after his assassination in 1519. This event was therefore an encouraging start for this young emirate for the reunification of Morocco, and to save it from a fate similar to that of Andalusia.

This article deals with the life of leader Yahia Outaafuft in the fields of Abda and Doukkala in the late 15th century and early 16th century. And how he went from a simple merchant to a strong military and political personality, with links of loyalty and obedience to the Portuguese King Manuel I, and in the service of the Catholic Church, by implementing the Christian project in Morocco;

• **Key words:** Leader Yahya Awtaft, Portugal, Morocco, the area of Abda and Doukkala, Marrakesh, the Saadia Emirate.

تمهيد:

يعالج هذا المقال جانبا من جوانب الحضور البرتغالي في المغرب في بداية العصور الحديثة؛ أي بعد أن استفقت أوروبا من سباتها العميق خلال القرون الوسطى

التي نعتها الأدب النقدي الأوربي بـ "العصور المظلمة"، كناية على الوضعية العامة للمجتمعات الأوربية خلالها، والتي اتسمت بتراجعات موهولة على كافة المستويات، وخاصة على صعيد العلم والتعلم؛ لذلك لم يتردد كتاب النهضة ورواد الإصلاح في أن يصفوا تاريخ أوروبا الحديث بـ "عصر الأنوار". وهو وصف يعكس النفسية التاريخية المتشنجة التي كابدها الأوربيون لأزيد من عشرة قرون، أي منذ سقوط روما عام 476م¹ إلى غاية التشطيب النهائي على المسلمين في الأندلس عام 1492م²؛ بحيث إنهم خرجوا من الظلمات إلى النور، وتمهدت لهم السبل للهيمنة والسيطرة على مجالات غيرهم في أفريقيا وآسيا والعالم الجديد!!

وكانت شبه جزيرة أيبيريا من أهم المجالات التي ترجمت هذه التحولات بفضل الدينامية القوية التي طبعت القائمين على تدبير شأنها العام يومئذ؛ إذ لم يتردد ملوكها في أن يجعلوا من المغرب هدفا مباشرا لهم، فافتتح البرتغاليون تاريخ الصراع العسكري والسياسي والدبلوماسي مع المغاربة باحتلال سبتة عام 1415م، واستمروا في سياستهم التوسعية مستغلين ضعف السلطة الحاكمة في المغرب، سواء في العهد الأخير للمرينيين، أو طيلة ثمانية عقود من الحكم الوطاسي في الديار المغربية.

واستطاع البرتغاليون احتلال عدد كبير من السواحل والشعور المغربية، وخاصة على الواجهة الأطلنتية من طنجة إلى تخوم الصحراء. وكانت آسفي واحدة من

¹ حول سقوط روما ينظر: أحمد (غانم حافظ)، الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية: 2007.

² حول سقوط الأندلس وطرد المسلمين واليهود منها، ينظر: راغب (السرغاني)، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، منشورات مؤسسة إقرأ للتوزيع والنشر والترجمة، القاهرة: ط. 1، 1432هـ/2011م.

المعادل البرتغالية التي سجلت حضورا قويا لسلطات لشبونة في المغرب، إلى دجة أن السلطة البرتغالية نجحت في وضع عدة آليات تديرية للاستقواء على السكان المحليين؛ بحيث إنها استطاعت أن تقنع بعض الزعامات القبلية بالوقوف بجانبها، والدفاع عن مصالحها، والعمل على إجراء مشروع التمسح في بلاد المغرب. وهذا ما مثله القائد يحيى أوتغوف في آسفي وضواحيها، بعدما ارتد عن الإسلام، واعتنق المسيحية، وصار خادما مطوعا للسلطة البرتغالية لسنوات عديدة، إلى أن تمت تصفيته ومن يحطب في حبله على يد بعض أبناء المنطقة في ظرفية تضاربت فيها حسابات القوى المتنافسة على مجالات عبدة ودكالة والشياظمة وحاحا ومراكش، وخاصة بين الوطاسيين والهنتاتيين والسعديين والبرتغاليين.

إذن، هذا المقال يعالج إشكالية تاريخية معقدة، تقارب زعيما قبليا مغربيا انقلب على أبناء جلدته، وارتد عن دينه، وارتقى في أحضان البرتغال. وهذا أمر دفعنا إلى طرح سؤال مركزي يتمحور حول هذه الإشكالية البحثية، وهو: كيف ارتد القائد يحيى أوتغوف عن ملته واعتنق دينا غير دينه، وناصر عدوا على أهله وذويه؟

ولعل هذا السؤال المركزي يخفي وراءه عددا كبيرا من الأسئلة الفرعية التي تلملم شتات هذا الموضوع، ومن هذه الأسئلة نطرح ما يلي:

من هو القائد يحيى أوتغوف؟ وكيف عملت السلطة البرتغالية على استمלתه إلى جانبها؟ وما هو حجم تأثيره على المقاومة والجهاد في مجال آسفي والقبائل المحيطة به؟ وكيف كانت نهايته ومآلات مغامراته؟

لا شك في أن الإجابة عن هذه الأسئلة تشكل هدفا من أهداف هذا المقال، وهو نقض الغبار عن جوانب من العلاقات التاريخية بين المغرب والبرتغال خلال

القرن السادس عشر الميلادي، والوقوف على وقائع كائنة وموجودة شاهدة على مدى التداخل العميق بين دولة البرتغال والمملكة المغربية، وكيف أن هذه الوقائع تشكل اليوم ذاكرة مشتركة للطرفين معا، ينبغي استثمارها والتعريف بها والعمل على صيانتها وتثمينها بشكل إيجابي ما بين المغرب والبرتغال.

السياق التاريخي للظرفية التي عاش خلالها القائد يحيى أوتغفوت

عاش المغرب انكسارا تاريخيا سحيقا في القرن الخامس عشر الميلادي؛ وذلك بفعل انهيار الدولة المرينية¹، وما خلفه هذا الحدث من تداعيات خطيرة على كافة المستويات في الديار المغربية. ورغم حلول بني وطاس محل بني عبد الحق؛ إلا أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا؛ بل زاده استفحالا وترديا؛ لأن الدولة الوطاسية ظهرت بمظهر الفريسة العرجاء التي أسالت لعاب الجياع المحيطين بها شمالا وشرقا؛ بحيث إنها صادفت اكتساح آل عثمان لبلاد الإسلام في المشرق، وظهور بوادر حقيقية لإمبراطورية عثمانية عازمة على طي سجل الخلافة العباسية² والفاطمية³ إلى أبد الآبدين؛ كما أنها تزامنت وخروج أوروبا من عصر "الظلمات"

¹ محمد عيسى (الحريري)، انظر: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني 610هـ/1213م- 869هـ/1465م، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت: ط. 2، 1408هـ/1987م.

² حول نشأة الدولة العباسية وتطورها ثم انهيارها، ينظر: عبد الرحمن (ابن خلدون)، تاريخ ابن خلدون، المسمى: ديوان المتبل والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 3/217-449 (8 أجزاء)، [ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة سهيل زكارا]، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: ط. 1، 1417هـ/1997م..

³ حول الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية، ينظر: تقي الدين أحمد بن علي (المقريزي)، اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، [تحقيق جمال الدين الشيال]، جازان، القاهرة: ط. 3، 1416هـ/1996م؛ الشيخ أبو العباس أحمد

إلى عصر "الأنوار"، بعدما نجح مفكرو القارة العجوز وروادها في إعادة النظر في حزمة من الإشكالات الحقيقية التي عرقلت مسارهم الحضاري لعدة قرون، فقدم هؤلاء حلولاً ناجعة لواقعهم المريض، وأعلنوا عن حركة إصلاحية عميقة شملت مختلف الحلقات المكونة لمجتمعاتهم.

وكانت الحلقة الأهم ضمن هذا المنظور الإصلاحي ما تعلق بالإنسان عينه؛ إذ الإنسان هو محور هذا الكون وعماده، وعليه تدور دوائره. ومادام أمره كذلك، فلا شيء يعلو فوقه، ولا يوجد أمر أهم ولا أوكد منه، فاستحق التكريم والتعظيم، ونال شرف التربية والتعليم، وأظهر ما فيه من روائع الجمال وحميد الخصال، ولم يعد ذاك المخلوق التعس، الذي اتهم على الدوام بأنه جَماع للذليلة والنحس؛ مثلما صورته رجال الأديرة والكنائس. وهذه الحركة الإصلاحية سميت عند أهلها بـ "الحركة الإنسانية"¹. وكانت مقدمة لـ "نهضة أوربية" شاملة، انتهت بدفن ماضٍ أليم، وبعث حاضرٍ باسم، ومستقبلٍ واعد لكل أبناء أوروبا، وخاصة بعد خلخلة أركان الاستبداد، وإعادة النظر في مقولات المقدس والمدنس، وإعطاء الأولوية للعقل في كل شيء، وكبح هيمنة الميتافيزيقا وخلفيات اللاهوت في شتى المجالات. فتم فصل الدين عن السياسة، وأقرت اللائكية. وأعقب كل ذلك حركة

بن سعيد (الدرجيني) [ت.670هـ]، طبقات المشايخ بالمغرب، جزآن، [تحقيق إبراهيم طلاي]، قسنطينة: 1394هـ/1974م؛ أبو حنيفة (القاضي النعان)، [ت.363هـ]، كتاب المجالس والمسائرات، [تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شيوخ ومحمد اليعلاوي]، منشورات دار المنتظر، بيروت: ط. 1، 1996.

¹ يعتبر الهولندي إيراسموس (1469-1536م) الأب الروحي للحركة الإنسانية، وأحد روادها الأوائل. وقد انصبت اهتماماته أساساً على مجال التربية والتعليم في أوروبا، سواء من حيث المناهج والطرق المستعملة في التدريس، أو من حيث المحتويات والمضامين المقدمة للتلاميذ والطلبة عموماً، فذاع اسمه بين رجال العلم والمعرفة في أوروبا، وصار ذكره مقترناً بهومو الإنسان عامة، وأمست الحركة الإنسانية تنسب إليه.

هائلة من الحداثة والتجديد فيما يهم التجارة والفلاحة والصناعة، والنظم الاجتماعية: صنعت السفن الضخمة، وظهرت الأسلحة النارية الفتاكة، ووضعت النظم والقوانين. وكان من نتائج هذا المد الإصلاحى الجارف، إقلاع اجتماعى حقيقى للمجتمع الأوربى فى الضفة الشمالية للبحر المتوسط؛ بل إن الأوربيين حققوا ما سماه بعض الدارسين بـ "مسألة التجاوز" بالنسبة إلى الضفة الجنوبية لهذا البحر، وعلى رأسها المغرب¹.

إذن، هذا هو السياق التاريخى العام الذى ظهر فيه القائد يجرى أوتغوفت على عهد الدولة الوطاسية، التى وجدت نفسها بين فكي كإماشة عصية: العثمانيون يزحفون شرقاً، والأبيريون خرجوا من قممهم فى الشمال، وتحوّل المغرب إلى حلبة صراع بين الأقوياء لامتلاك مواقع النفوذ فوق أرضه؛ بحيث إن البرتغاليين دشّنوا وجودهم باحتلال مدينة سبتة المغربية يوم 21 غشت من عام 1415م²، واكتسحوا بعد ذلك سلسلة من المدن الساحلية ذات المواقع الحيوية بالنسبة إلى أهدافهم التوسعية فى القارة الإفريقية، ومنها على الخصوص مدينة أصيلة وطنجة عام 1471، ثم مدينة آسفي 1481م وأزمور 1486م، وساحل ماسة 1497، ومدينة البريجة عام 1502م، وحصن أكادير سنة 1505م. واحتل الأسبان مدينة مليلية سنة 1497م، ثم عدة مواقع على مقربة من سانتا كروز؛ مثل

¹ عبد المجيد، (قدوري)، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، [منشورات المركز الثقافى العربى]، الدار البيضاء: ط. 1، 2000.

² عبد الكريم (كريم)، المغرب فى عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، 6 [منشورات جمعية المؤرخين المغاربة]، الرباط: 1427هـ/2006م.

طاكوست، عاصمة وادي نون، وتامانار وإفران وإفني عام 1499م، وغيرها من المراسي الأطلنتية بجنوب المغرب¹.

الكنيسة الكاثوليكية تبارك توسعات البرتغاليين والإسبان في المغرب

لقد كانت السلطة الوطاسية قد بلغت مبلغا محبطا من الوهن والضعف مع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م، ولم يعد بإمكانها الدفاع عن نفسها، فما بالك بالذود عن بلادها وعبادها. وباتت تفتش عن كل الوسائل التي من شأنها أن تحفظ لها ماء وجهها الشحيب.

وكان ديدان آل وطاس في ذاك النفق العتم، عقد هُدى مع النصارى ببندود محجفة في حق المغرب والمغاربة؛ مثل الهدنة التي وقعتها السلطة الوطاسية مع سلطات لشبونة على خلفية انهزام الجيش الوطاسي أمام نظيره البرتغالي يوم 20 غشت 1471م في مدينة أصيلة؛ إذ أسفرت هذه الهزيمة عن قتل البرتغاليين قائد المدينة، وتهديم مساجدها وحصنها، وتفجير أسوارها، وإلقاء القبض على أسرة السلطان محمد الشيخ الوطاسي التي كانت تتكون من أخته وابنتيه وابنه محمد، فحاول محمد الشيخ طرد البرتغاليين من أصيلا؛ لكنه لم يفلح في ذلك "ففضل أن يتفاوض في نهاية الأمر، وعقد هدنة مع ملك البرتغال لمدة عشرين سنة، واسترجع زوجته وابنتيه، ولم يفلح في تحرير ابنه الذي احتفظ به رهينة للبرتغال"².

¹ عبد الكريم (كريم)، المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية. 11-7.

² أوغيسست (كور)، دولة بين وطاس (1420-1554)، 47 [ترجمة محمد فتحا] الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 12، ط. 1، 2010.

والشيء نفسه حاول السلطان الوطاسي فعله مع الملكين الإسبانين فرناندو وإيزابيلا اللذين أرقهاه بجملة من الاتفاقيات المذلة، التي كان محمد الشيخ يقدم من خلالها سلة من التنازلات المخجلة لصالح الإسبان، اعتقاداً منه أنهم سيمدون له يد العون بغية التغلب على منافسيهم البرتغاليين، وطردهم من المجالات المغربية. ولم يكن يدرك البتة وقطعا أن تدبير المنافسة والصراع بين حكام أيبريا حول مواقع النفوذ خارج القارة الأوروبية موكول لأسياد الفاتيكان، وأن البابا كان يراقب عن كثب ما يحدث بين الطرفين، ولا يتوانى لحظة في الحيلولة دون حصول التحام بينهما من خلال حثها على عقد اتفاقيات واحترام براءات الكنيسة التي أصدرتها لحساب هذه الجهة أو تلك¹، فكان يُذكر ملوك أيبريا بأن ما يفعلونه هو خدمة عظيمة للمسيحية خارج الديار الأوروبية، ولا سيما بعد نجاح الملكين الإسبانين في طرد المسلمين بشكل نهائي من الأندلس عام 1492م، وظهور عجز المسلمين عن مناصرة إخوانهم في الضفة الشمالية للبحر المتوسط؛ مما شجع البابا ومن معه على المضي قدماً في إطار مخطط تبشيري هائل يشمل كل البلاد التي تخضع للتاجين البرتغالي والإسباني، وفي مقدمتها بلاد المغرب وشمال أفريقيا، ثم أفريقيا جنوب الصحراء، ثم بلاد الهند والصين، وبلاد العم سام، العالم الجديد، التي تم اكتشافها انطلاقاً من سنة 1492م، حتى أن الأدبيات التاريخية تصف النصف الأول من القرن 16م بكونه عهد انبعاث حقيقي للمسيحية الكاثوليكية.

¹ تعتبر اتفاقية توردسيلاس (Tordesillas) الموقعة بين الإسبان والبرتغاليين بإشراف البابوية في روما عام 1494 أبرز الاتفاقيات التي أشرفت عليها الكنيسة، وجنبت من خلالها الطرفين من الدخول في حرب أكيدة؛ بحيث إنها قسمت بينها مناطق النفوذ المتنازع عليها، وأرغمت كل طرف على احترام بنودها ونصوصها. انظر: المغرب في عهد النوبة السعدية، 10.

ومن سوء طالع الوطاسيين أن القرن 16 أطل عليهم بويلات لا حصر لها، فإلى جانب هذا الطفوح التوسعي الهائل للأوربيين والعثمانيين، وما حمله بين ثناياه من تهديد حقيقي لكيان الدولة في بلاد المغرب، فإن البلايا والنوائب والمحن الشديدة أناخت بكلكلها على بني وطاس، وأظهرتهم بمظهر البائس النجس، فتكالت على المغرب مساعب ومخمصات، وعز القطر فيه لجج متتالية، وأعقب ذلك ندرة في الحنط، وعلت سومة ما يقتات به، وسكن الجوع جوف بني آدم، وتلا ذلك أوبئة مهلكة نابت المغاربة في الحواضر والأرياف، ولم يعد في المغرب أرخص من البشر في سوق النخاسة¹.

سقوط آسفي في يد البرتغال وبداية ظهور القائد يحيى أوتغوفت:

كانت آسفي، عاصمة دكالة، شبه مستقلة عن السلطة الوطاسية، تحكمها عائلة عربية بقيادة حمادوش بن فرحون الموالي للبرتغاليين، الذي قلده ملك البرتغال جان الثاني قيادة آسفي يوم 16 أكتوبر من عام 1488م². وظلت هذه المدينة خاضعة للأمير حمادوش إلى أن قتل على يد ابن أخيه الأمير عبد الرحمن بن فرحون الذي فرض سيطرته على آسفي، ثم مالبت أن دخل في خلاف مع أحد أصهاره المسمى علي بن وشين عام 1507م. هذا الأخير تأكد من رغبة الأمير عبد الرحمن في التخلص منه، فبدأ يدبر كيفية اغتياله والاستيلاء على ممتلكاته؛ لكنه خشي على نفسه من

¹ حول الأوبئة والمجاعات والكوارث التي ضربت المغرب على عهد الوطاسيين، ومدى تأثير ذلك على السلطة والمجتمع، ينظر مقالنا بعنوان: «الجوائح والسلطة والدين في المغرب زمن الوطاسيين: جوانب من تاريخ المغرب العميق»، 198-161. مقال في مجلة دراسات، عدد 22، 2019.

² بن محمد (الوزان)، [المعروف بليون الإفريقي]، 148/1 هامش رقم 55. وصف إفريقيا، جزآن، [ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر]، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1983.

عدم قدرته على تنفيذ خطته لوحده، فاستعان بأحد أصدقائه الذي كان يثق فيه ثقة تامة، "وهو أبو زكريا يحيى بن محمد بن تعففت"¹، الذي كان شابا شجاعا، يترأس أيضا جماعة من قطاع الطرق.

لقد تربص علي بن وشين ويحيى أوتعفوفت بالأمير عبد الرحمن بن فرحون، واستغلا فرصة سنحت لهما يوم عيد الأضحى للقضاء عليه؛ إذ يروي الحسن الوزان تفاصيل تلك الواقعة، مبينا أنه في أبريل 1507/ذي الحجة 911هـ أثناء يوم عيد الأضحى "بعث الأمير إلى علي [صهره] يخبره بأنه يرغب في أن يقوم معه بعد الانتهاء من مراسم الاحتفال الديني بنزهة على الخيل قصد التسلية، وعين له مكانا ينظره فيه، ونيته أن يفتك به هناك. لكن عليا قدر كل شيء، واستدعى صاحبه (يحيى بن تعففت) وأخبره بأن الوقت حان لتنفيذ مشروعها. أخذها معها عشرين من أصحابها، وتسلحوا بعناية وهيؤوا سفينة شراعية زعموا أنها سترسل إلى أزموور، وهي في الواقع معدة ليتمكنوا من الفرار فيها عند الاقتضاء. توجه هؤلاء إلى المسجد فوصلوا بعد أن دخل الأمير إليه بقليل وأحرم بالصلاة. وكان المسجد غاصا بالناس. دخل الشبان ومن معها من الرجال وهم متقدمون عزما وإقداما، واقتربوا من الأمير الذي كان يإزاء إمام الصلاة دون أن يعترض طريقهم الحراس الذين لم يكن لهم شك فيهم بما يعرفون لهم من مكانة عند الرئيس.

تقدم أحد المتآمرين أمام الملك، وبقي الآخر وهو علي خلفه طعنه في ظهره بخنجر، في حين أغمد الثاني سيفه في جسمه [...]. وأنهما لم يخرجوا إلى الساحة إلا

¹ بن محمد (الوزان)، [المعروف بليون الإفريقي]، وصف إفريقيا. 148. هامش رقم 56.

بعد أن مات الرئيس، فخطبا في الناس وأقنعاهم بأنهما إن قتلا الرئيس فإنهما على حق لأنه كان يريد قتلها. سكنت روعة الناس بسهولة ورضوا بأن تكون الإمارة في يد هذين الرجلين"¹.

واسترسل الحسن الوزان في حديثه عن علاقة علي بن وشين ويحيى أوتغوفت، مبينا أن الرجلين سرعان ما اختلفا مع بعضهما في العام ذاته، ونشأت بينهما عداوة كبيرة؛ فخاف ابن وشين على نفسه، وفر هو وأهله إلى "تاركة على ضفاف أم الربيع، فسجن في ماي 1514/ربيع الأول 920هـ من قبل الناصر أخ ملك فاس، ونقل إلى فاس، ثم رجع، واستقر به المقام أخيرا في مملكة فاس"²، في حين تقرب أوتغوفت من البرتغاليين، وصار تابعا لهم، سيما وأن مدينة آسفي اضطرت أحوالها، واندلع صراع خطير بين مختلف مكوناتها القبلية. وانتقل لهيب هذا الصراع ليشمل بعض التجار البرتغاليين الذين كانوا مقيمين بداخلها، فاستنجدوا بملك لشبونة الذي مددهم "بالذخيرة والمؤن وخمسة آلاف محارب إضافة إلى مائتين من الخيول، فحوصرت المدينة وجاع أهلها واضطروا إلى قبول إخلائها مقابل الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم. استولى البرتغاليون على المدينة وحصنوها بشكل جيد خوفا من أن يحاول المسلمون استرجاعها، خصوصا وأن جل سكانها هربوا إلى بني أمغار واعتصموا برباطهم"³. وبعد أن هدأ الوضع في آسفي، أمر قائد الأسطول "بأن يحضر أمامه الرئيس المذكور المسمى يحيى (بن تغففت) فبعث به إلى ملك البرتغال الذي جعل له إيرادا حسنا، وأعطاه عشرين خادما. وبعد ذلك

¹ بن محمد (الوزان)، [المعروف بليون الإفريقي]، وصف إفريقيا. 149-148.
² بن محمد (الوزان)، [المعروف بليون الإفريقي]، وصف إفريقيا. 151-150/1.
³ أوغيسست (كور)، دولة بين وطاس (1420-1554)، 72.

أعاده الملك إلى إفريقيا ليحكم البادية التابعة لآسفي¹؛ بحيث إن القائد يحيى عمل على تحصين المدينة، ونظم أحوازها تحت حماية تاج لشبونة²، ولعب دورا خطيرا في إفشال عمليات الجهاد والمقاومة للدفاع عن آسفي ضد النصارى البرتغاليين. وهذا الأمر تناقله المؤرخون المغاربة بكثير من الأسى والحسرة منذ القرن م16 إلى غاية القرن م20³؛ بحيث إن الناصري بين أنه رغم المقاومة المستميتة التي أبدتها المجاهدون في آسفي، فإن الخلاف الذي دب في صفوف المسلمين، كان عاملا من عوامل هزيمتهم؛ كما أن الآلة العسكرية النصرانية كانت لها الغلبة والتفوق، بحكم الفوارق التقنية واللوجستية الواضحة بين القوات البرتغالية والمغاربة؛ إذ إن جيش المسيحيين كانت سفنه تقصف بكل عنف أسوار المدينة، وسكنى الأهلي، وتدعم القوات البرية بما يلزم من العتاد والمؤن، في حين كانت الإمدادات القبلية للمقاومين غير منتظمة، ولا ترقى إلى مستوى رد العدوان عن آسفي؛ مما جعل تلك المدينة تعرف المصير ذاته الذي عرفته مدن مغربية قبلها سقطت في يد البرتغاليين؛ مثل سبنة وطنجة وأصيلة وغيرها⁴؛ بحيث إن الأطماع البرتغالية ظلت مستمرة في مجالات عبدة، ولم تحب جذوة الصراع بين القبائل القاطنة بالمجالات الممتدة من أزمو

¹ وصف إفريقيا/1. 151.

² أوغيسست (كور)، دولة بين وطاس (1420-1554)، م.س. ص. 72.

³ انظر: الناصري (أحمد بن خالد)، الاستتصا لأخبار دول المغرب الأقصى/ 4، 356، 8 أجزاء، [تحقيق أحمد الناصري، أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق]، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001.

⁴ حول الوجود البرتغالي في المغرب عامة، وفي مجالات عبدة ودكالة بشكل خاص، ينظر: أحمد (بوشرب)، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمو (قبل 28 غشت 1481م - أكتوبر 1541م)، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1984. وناقش المؤلف نفسه عددا من المواضيع التي لها صلة بالوجود البرتغالي في المغرب وإفريقيا من خلال كتابه بعنوان: المغرب وإفريقيا في سياق كشوف العوالم الجديدة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ط. 1، 1992.

شمالاً إلى موغادور جنوباً؛ مثل أولاد بوعزيز، مشنزاية، أولاد سبيطة، أولاد عمران، أولاد يعقوب، بني تميم، بني عامر، بني ماكر وقبائل ركرآكة وغيرها.

وقد استطاع البرتغاليون وضع أياديهم على كل هذه المجالات بعد أن سيطروا بشكل نهائي على مدينة آسفي عام 1508م؛ إذ إنهم احتلوا بعد ذلك مختلف المدن والقرى المجاورة؛ مثل: مدينة أگوز في أكتوبر 1510م، ومدينة أير في نونبر من العام نفسه (1510م) ومدينة كوتي في أكتوبر 1511م، ومدينة وتنانة في دجنبر 1512م، وأزمور 1513م، ومدينة مزكان (الجديدة) وتيط ودار فارس 1514م، ومدينة تادنيست في فبراير من العام ذاته (1514م)؛ وبذلك استطاع البرتغاليون السيطرة على المدن والمراكز السكانية الواقعة على الساحل الأطلسي من أزمور إلى موغادور؛ مما سهل عليهم التوغل في المناطق الداخلية بمجالات أولاد بوعزيز وأولاد عمران، فسيطروا على تزروت الجنوبية في أكتوبر 1511م، ومشنزاية في مارس 1512م، وسبيطة في فبراير من العام نفسه، والمدينة الغربية في مارس 1512م، وسرنو في يناير 1512م، والسكاون في فبراير 1512م، وسكياط في يناير 1512م، وبني ماكر في ماي 1514م، وتافوف وبنكيز في فبراير 1514م، وبني تميم وبني عامر في العام ذاته، وصولاً إلى مجال هسكورة (مجال الرحامنة) شرقاً في عام 1515م، قبل أن يوجهوا اهتمامهم نحو الجنوب الشرقي لقبائل عبدة، في اتجاه مراکش التي بدأوا يشنون عليها حملاتهم العسكرية انطلاقاً من أبريل عام 1515م¹. وهو ما يعني أن البرتغاليين استطاعوا أن يفرضوا هيمنتهم على مجال

¹ حول مراحل احتلال البرتغاليين لمجالات دكالة وعبدة ومختلف المناطق الساحلية والداخلية الممتدة من أمور إلى موغادور، ينظر الخريطة التي وضعه الأستاذ أحمد بوشرب في هذا الباب، والتي وطن من خلالها مختلف هذه المراكز، وثبت فوقها تواريخ احتلال البرتغاليين لها باليوم والشهر والسنة. نفسه، 229.

عبدة ودكالة بشكل شبه كلي، وباتوا يطمحون في الوصول إلى مدينة مراكش التي شكلت بالنسبة إليهم هدفا استراتيجيا للسيطرة على السلطة السياسية في المغرب، والإطاحة بالوطاسيين.

القائد يحيى أوتعفوفت من تاجر مغمور إلى حاكم مشهور في سلك الخدمة البرتغالية أصبح الوضع في حاحا والشياضمة ودكالة وعبدة خطيرا للغاية، بعد سيطرة البرتغاليين على آسفي عام 1508م، وباتت القبائل تبحث عن يحميها من الخطر المحقق بها، في ظل سلطة وطاسية لا حول ولا قوة لها؛ إذ باتت قبائل تلك المجالات تسمع عن ظهور منقذ في سوس، وضواحيها، وباتت ترغب في أن يصل مد الأشراف السعديين إلى المجالات العبدية والدكالية لإيقادها من وضع لا تحسد عليه، سيما وأن محمدا بن عبد الرحمن، القائم بأمر الله¹، كان قد أطلق حملة جهادية شاملة في جنوب المغرب، واستنفض السكان لمقاومة النصارى أينما كانوا؛ كما أن ابنه أحمد الأعرج ومحمد الشيخ المهدي سارا على منواله في حث القبائل على الوحدة والتكتل ضد المسيحيين، وبات الناس يتسامعون بالدعوة السعدية في أحواز مراكش، ولاسيما في حاحا والشياضمة، بعدما توفي بها القائم بأمر الله في منطقة تافوغالت عام 1517م².

¹ عرفه المؤرخ عبد الرحمن السعدي بأنه هو: «مولاي محمد أمغار الشريف بن عبد الرحمن [...] أم أرض سوس المغرب ونزل فيها، وسكن. وتلقاه أهلها بالتعظيم والإكرام والتشريف والاحترام». انظر: كتاب: تاريخ السودان 206، [تحقيق وترجمة للفرنسية: هوداس]، طبعة باريس: 1981.

² عبد الله (استيتو)، الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 66 أكادير: مطبعة B.J.Print. ط 1. 2017.

ومما لا شك فيه أن الشعور بالخوف الذي انتاب سكان قبائل عبدة ودكالة وحاحا والشياضمة واحمر وغيرها، كان بسبب التحولات الخطيرة التي بدأت تحدث في تلك المجالات، ولاسيما بعد اصطفاف بعض الزعامات القبلية في صف العدو البرتغالي، وباتت تحطب في حبله. وهو ما مثله القائد يحيى أوتغفوفت الذي باتت له مكانة متميزة في سلك خدام تاج لشبونة. وقد التقى به يوحنا ليون الإفريقي شخصيا في قرية تومكلاست على بعد 30 ميلا من مدينة مراكش في صيف عام 1514/920هـ؛ لذلك فإن هذا الرحالة انفرد بمعلومات هامة حول هذا القائد؛ إذ يقول الوزان في هذا الصدد: "ذهبت إلى تومكلاست، وأقمت فيها مع سيدي يحيى الذي أوفده ملك البرتغال ليحيى الخراج باسمه، وعينه قائدا على آسفي"¹. ولم يفت يوحنا ليون الإفريقي رصد العلاقات الأولى التي ربطت يحيى أوتغفوفت بالبرتغاليين، والتي بدأت على خلفيات تجارية، قبل أن تتخذ أبعادا سياسية وعسكرية خطيرة²؛ إذ كان أوتغفوفت "يحدُّ في تذليل سبيل التبادل التجاري ويسمح بوسق البضائع الممنوعة تصديرها إلى بلاد "الكفر"، حين كان شيخا بمنطقة سرنو بأسفي، مقابل هدايا ورشاوى سخية. وبهذا رخص له ببناء حصن على شاطئ آسفي لتخزين بضائعهم بحجة حمايتها من السلب وتقلبات الأوضاع"³. وكان هذا الحدث إيذانا عن بداية عهد جديد في آسفي؛ لأن ذلك الحصن شكل منطلقا لسلسلة من العمليات العسكرية البرتغالية ضد القبائل المجاورة منذ

¹ وصف إفريقيا، 1/ 126.

² وصف إفريقيا، 1/ 148-151.

³ أنس (الصنهاجي)، مقال في مجلة زمان، غشت- شتنبر، 2016، [53-55]، ص. 54.

1508م؛ كما أنه كان علامة فارقة في التعاون بين قوات الاحتلال الصليبي والقائد يحيى أوتغوفت الذي اتخذ من قرية سرنو مقرا رئيسا لإقامته فيما يعرف اليوم بمنطقة الصعادلة المحادية لجماعة دار القايد عيسى بنعمر. وأصبح اسم أوتغوفت يتردد على لسان المجال الدكالي منذ عام 1507م بعدما خرجت آسفي من تحت يد السلطة الوطاسية، وبات وضعها شبه مستقل، وأضحت مطمعا للبرتغاليين الذين قربوا إليهم بعضا من أعيان المنطقة، واستمالوا عددا من زعماء القبائل المحلية، ومنهم القائد يحيى أوتغوفت الذي عينه القبطان كوتتي، حاكم آسفي، جاييا للضرائب، وقابضا لها في المجالات القبلية العبدية والدكالية بعد تغلب البرتغاليين على آسفي واحتلالها نهائيا عام 1508م.

ولقد بينت الوثائق البرتغالية التي أرخت لهذه الفترة مدى انخراط القائد أوتغوفت في المشروع التوسعي البرتغالي للهيمنة والسيطرة على المجالات الجغرافية الممتدة من نهر أم الربيع شمالا إلى نهر تانسيفت جنوبا¹؛ بحيث إن مجمل التقارير التي رفعها ممثلوا البرتغال في آسفي من 1508م إلى غاية 1519م، جاءت متضمنة لاسم القائد يحيى أوتغوفت، مقرونا بأسماء حكام لشبونة في مجالات دكالة. وأظهرت هذه التقارير أن وجود هذا القائد كان له تأثير كبير على خضوع السكان للبرتغاليين والانصياع لأوامرهم، والاستجابة لمطالبهم، وخاصة ما له علاقة بقضايا الجبايات والرسوم التي كان حكام لشبونة يفرضونها على السكان المحليين، وكان أوتغوفت يتولى جبايتها والعمل على جمعها؛ لذلك فإن هذا القائد لم يتردد في أن يجعل من سرنو مدينة منيعة، أحاطها بعدد من الأسوار، واختار لها موقعا مميزا على مقربة

¹ انظر خريطة مراحل تحك البرتغاليين في دكالة ضمن دراسة بوشرب: دكالة والاستعمار البرتغالي، 290.

من مدينة آسفي في "أعلى ربوة مطلة على سهول مترامية الأطراف، وكانت بناياتها منتشرة على وجه الأرض شائخة، تحكي قصصا جرت أطوارها داخل معالم غمرت معظمها السيول التي كانت قد اجتاحت المنطقة خلال القرن السادس عشر. ويقول الرواة إنه لم يبق من أطلالها سوى قطع من المرمر لقصر توارت معالمه في رحم تلك الأرض الصخرية التي جعل منها يحيى أوتغوفت مركزا لقيادته [...] كما كان بها عدة مغارات تعد بمثابة عنابر سجنية يقبع فيها المخالفون لحكمه"¹.

كان القائد يحيى يطمح في أن يظهر بمظهر الأبهة والعظمة بين أبناء منطقتة، مثلما هو معروف عن عقلية القياد المغاربة عبر تاريخهم الطويل؛ إذ إن النصوص التاريخية تشير إلى أن هذا الرجل تشبه في سلوكياته وتصرفاته وأحواله بالأمراء والسلاطين، مسكنا وملبسا ومأكلا؛ لذلك كان حريصا على أن يجعل من سرنو قلعة يهابها كل روادها، فهبأها على أكمل وجه، وجعل بها مختلف المرافق التي شكلت معالم المراكز الحضرية آنئذ؛ إذ من خلال النباش في ذاكرة هذه المدينة اعتمادا على سكان المنطقة، فإن الرواية المحلية تدل الباحث على "أن المكان كان يحتوي على مسجد وقب وأروا (إسطبل) وهري للحبوب، فكانت تودع بداخل مطامرها، تمتلئ مما يجلب وينتزع من القبائل بما يفرض عليهم من السبايا"².

¹ عبد الرحيم (عنبوري)، «مدينة يحيى أوتغوفت بقرية سرنو»، مقال منشور في موقع:

<http://www.safipress.com/index.php?op=suite&art=1176>

حمل وבוشر بتاريخ 2019/11/10

² «مدينة يحيى أوتغوفت بقرية سرنو»، ص. 1.

ولقد عين البرتغاليون القائد يحيى بمجال آسفي ومنحوه صلاحيات واستتعة في اتخاذ القرارات وتصريف الإجراءات؛ الشيء الذي كانت له نتائج خطيرة على أوضاع السكان، على اعتبار أن أوتغوفت بدأ يتنافس مع قواد آخرين في خدمة المصالح النصرانية، والتزلف إلى سلطات الاحتلال؛ إذ كان يرغب في تسلق سلم المجد في المجال العبدى والدكالي بشكل سريع، وبات يعتقد أن خدمة الحاكم البرتغالي في آسفي يمكن أن تكون البوابة الحقيقية التي بإمكانها أن تقوده إلى تزعم السلطة السياسية في المجالات القبلية الممتدة من أزموور إلى مازغان وأحواز مراكش؛ لكن هذا الهدف بدا بعيد المنال بالنسبة إلى القائد أوتغوفت ما لم يغير من مخططاته وأساليب تواصله مع السلطة البرتغالية؛ لذلك لم يتردد لحظة في الاقتناع بأن الارتواء من نبع العين مباشرة أفضل بكثير من الاعتماد على سواقيها والمياه الخارجة منها، فقرر السفر إلى شبه جزيرة أييريا، والاتصال بالتاج البرتغالي في لشبونة عام 1510م¹ لعرض خدماته على الملك إيمانويل الأول، وإقناعه بالدور الذي يمكن أن يؤديه لتحسين مكتسبات البرتغال في المنطقة وتوسيع نفوذها¹.

وتشير المتون التاريخية إلى كون القائد يحيى بقي في لشبونة مدة طويلة، وحظي بلقاء الملك البرتغالي، واستطاع أن يقنعه بأفكاره وتصوراته حول علاقته بممثلي البرتغال في السواحل الأطلسية المغربية، ومدى القيمة المضافة التي بإمكانه أن يقدمها إلى مختلف مكونات السلطة المسيحية هناك؛ كما أن هذه المظان تنبهه على شيء هام في رحلة أوتغوفت إلى الديار البرتغالية، وهو انبهاره الشديد بالفرق الواضح بين أحوال المغرب ومثيلاتها في لشبونة، ولاسيما على المستوى الحضري

¹ «القائد أوتغوفت "خدم" المستعمر البرتغالي»، ص. 54.

والعمراني، "فاندھش اندھاشا شديدا للمناظر العمرانية في العاصمة البرتغالية، والمشاهد الاقتصادية والاجتماعية، وهاله ما رأى من نظام واستقرار، وما اطلع عليه من ركائز القوة وآليات السيطرة لدى الجار البرتغالي"¹.

لقد عاد القائد يحيى أوتغوفت إلى المغرب وكله طموح وعزم على أن يلتزم كل الالتزام بالوعود التي قطعها على نفسه تجاه سيده في لشبونة، سيما وأنه نال جزءاً من رضاه، بأن أقره الملك البرتغالي مانويل الأول (1495-1521م) على العمل في سلك خدامه بالمغرب، ومنحه صلاحيات كبيرة فيما يروم إخضاع القبائل المغربية إلى السلطة المسيحية، وإخماد الحركات الجهادية التي تنظمها بعض القبائل والزوايا ضد الوجود البرتغالي في المجالات المذكورة². وتشير بعض الكتابات إلى أن من بين ما منحه الملك البرتغالي إلى القائد يحيى أوتغوفت هو إقطاعه "قرية سرنو بسهولة وبساتينها ومروجها الخضراء وأبارها ذات المياه العذبة جزاء خدمته لأسياده وتفانيه في خدمتهم، يستفيد من مداخلها هو وأبناءؤه من بعده. وحدد له راتباً معيناً، وأصبح له الحق في أخذ خمس الغنائم، زيادة على أن سلطته كانت تسمح له بكثير من الرشاوى والهدايا والابتزازات، والاستفادة كذلك من خدماته في إخضاع القبائل وجمع المكوس، فأصبح له حرس خاص مكون من 100 فارس تجلت على صهوة الخيول التي اقتناها من منطقة الحوز تؤدي روايتهم بالكامل مع بعض الإكراميات زيادة في العطاء"³.

¹ الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 73.

² «القائد أوتغوفت "خدم" المستعمر البرتغالي»، 54.

³ «مدينة يحيى أوتغوفت بقرية سرنو»، 2.

وتشير النصوص التاريخية إلى أن القائد يحيى أوتغوفت لما استتب له الأمر في آسفي بات وصول ويجول في محيطها القبلي، فرَوَّع السكان، وأذاقهم ألوانا شتى من العذاب والمحن، واستطاع إخضاع زعماء القبائل إلى سلطته، وجعلهم يقبلون بإملاءاته وشروطه، فأرغم وجهاء الشيازمة على الاعتراف بالسلطة المسيحية البرتغالية، والالتزام بدفع الضرائب لها، فبلغ خبره إلى بعض المناطق، وخشي سكانها على أنفسهم؛ مثل سكان أولاد عمران السكاون، وأولاد عمران الجنوبية، ودواوير الجبل الأخضر الذين أعلنوا خضوعهم له بشكل سلمي عام 1514م مخافة سفك دمائهم والإثخان فيهم قتلا وتنكيلا¹؛ وبذلك بدأ مجال نفوذ أوتغوفت يتمدد ويتوسع، وبات أهم حليف للبرتغال في المغرب. وكانت له أدوار خطيرة للغاية فيما يتعلق بترسيخ الوجود البرتغالي في سهول دكالة وعبدة التي أصبحت خاضعة خضوعا شبه مطلق لسلطته. ومن الأمور التي اشتهر بها هذا القائد تحقيقه لانتصارات استعصت على البرتغاليين أنفسهم. وتشير بعض الكتابات إلى "أن يحيى أصبح مجرد وجوده ضمن الجنود كافيا لبث الرعب في نفوس الأعداء، ومشاركته للحلفاء تجعلهم متيقنين من الانتصار، فيسارعون إلى المشاركة في الغارات. واعتبر أوتغوفت بذلك أكبر عملاء الاستعمار البرتغالي على الإطلاق، لكونه لعب دورا طلائعيا في نشر النفوذ البرتغالي في عبدة ودكالة والحوز والشيازمة وفي الدفاع عن المكتسبات البرتغالية. وساهم في إخضاع القبائل وفي

¹ حول مراحل تحكم البرتغاليين في دكالة، انظر الخريطة التي وضعها الأستاذ أحمد بوشرب ضمن دراسته: دكالة والاستعمار البرتغالي. 229.

تنحية الهنتائين عن المنطقة، وفي تأخير نشر النفوذ السعودي شمال تانسيفت والصمود في وجه الوطاسيين¹.

ولعل هذه الانتصارات السريعة والمفتمة للانتباه، جعلت سلطة القائد يحيى أوتعفوفت تتعاضم وتتفاحش، فعلا نجمه علوا كبيرا، وامتدت قوته إل غاية الحاكم البرتغالي نفسه في حصن آسفي؛ بحيث إن هذا القائد لم يتردد لحظة في توجيه لوم وعتاب شديدين إلى حاكم آسفي نونو فرنانديش دي أتايد (Nuno Fernandes de Ataide) واتهامه بعدم مساعدته على بسط السيطرة البرتغالية على بعض القبائل الثائرة؛ بل إن أوتعفوفت لم يعد في حاجة إلى العودة إلى الحاكم البرتغالي ليستشيريه فما هو مقبل عليه؛ بل باتت قراراته تنسم بنوع من الاستقلالية التامة عن الحاكم دي أتايد². ولم يعزب عن بال القائد يحيى أن يرسل التقارير المنتظمة إلى لشبونة بخصوص الأعمال "الجليلة" التي يقدمها للتاج البرتغالي، وخاصة بعدما نجح في إلحاق هزيمتين متتاليتين بالأمر الناصر الهنتائي بضواحي مراكش: الأولى بسفح جبل بني ماكر، والثانية بمنطقة أكواز. وأردف ذلك بانتصار بين على أولاد أحمد بالحوز، وأرغمهم على الاعتراف بالسلطة البرتغالية، والقبول بدفع الضرائب لصالحها³.

واشتبك القائد يحيى أوتعفوفت مع قوات القائم بأمر الله السعودي في بلاد الشياضمة، وألحق بالسعديين خسائر فادحة أرغمتهم على التراجع نحو مجال تانديست من أجل الاستعداد لجولات أخرى من المعارك بين الطرفين. وتجدد

¹ «مدينة يحيى أوتعفوفت بقرية سرنو،³.

² الدولة السعودية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 75.

³ «القائد أوتعفوفت "خدم" المستعمر البرتغالي»، 54.

القتال بينهما سنة 1514م، ودارت الدائرة على القائم بأمر الله، ومني بهزيمة مذلة، استطاع على إثرها أوتغوفت أن يدخل مدينة تانديست، وسيطر عليها كلياً¹. وهو ما شكل خطراً كبيراً على الحركة السعدية الناشئة، سيما وأن الشريف السعدي كان على علم بأن البرتغاليين قد أعدوا شبكة من المتعاونين معهم في المغرب، واستطاعوا استمالة عدداً مهماً من الزعامات القبلية، التي اعتنقت المسيحية، وصارت مرتبطة بشكل مباشر بالملك البرتغالي، وتدافع عنه، وتضحي من أجله بالغالبي والنفيس. وهذه حقيقة تاريخية اصطدم بها القائم بأمر الله في المجال السوسي؛ إذ لاحظ أن البرتغاليين صار لهم في سوس عدد من الأتباع المخلصين الذين يوسعون نفوذ حكام سانتا كروز، ويعملون جاهدين لإقناع الناس بالدخول تحت الوصاية البرتغالية. وأشهر من مثل هذه الحالة في الديار السوسية هو القائد ناصر وابن عمه داوود بن مالك، قائد قبيلة هرزازة (أولاد جرار)، الذي كان "اليد اليمى لحاكم سانتا كروز؛ لأنه كان بمثابة المشرف على جمع الضرائب من القبائل ودفعها إلى السلطات البرتغالية. وقد مارس هذه المهمة من سنة 1513م إلى عام 1518م. وكان شوكة مؤلمة في حلق القائم بأمر الله وابنيه أحمد الأعرج ومحمد الشيخ المهدي"².

ومما يؤكد نجاح البرتغاليين في خلق شبكة من المتعاملين معهم في الجنوب المغربي، على شاكلة القائد يحيى أوتغوفت في المجال المسفيوي، أن الشريف السعدي القائم بأمر الله، حاول إثراء داوود بن مالك عن موافقه، وإقناعه بالعدول عن

¹ انظر كتابنا حول الدولة السعدية بعنوان: الدولة السعدية جوانب م تاريخ المغرب الحديث 74.

² نفسه، 65.

مناصرة البرتغاليين، ودعاه إلى الالتحاق بصفوف المجاهدين لطرد البرتغاليين من سانتا كروز؛ لكنه تفاجأ برد غير متوقع من هذا القائد؛ إذ أجابه بقوله: "بأن لا يقدر الله بأن يكون ابن مالك أبدا خائنا لملك البرتغال، سيده الذي يغدق عليه من كل النعم، وأنه سيقتي وفيما ومخلصا له حتى الموت، وكذلك بالنسبة للحاكم [حاكم سانتا كروز] الذي يتلقى منه كل التشريف والتكريم. وأنه يطلب من الله تعالى أن يعينه على القضاء عليه [على الشريف السعدي] وقتله وأخذ ملكه كله منه وإخضاعه وجعله خديما للملك سيده. كما يطلب من الله أن يكون ملك البرتغال سيد البلاد يحكمها ويخضعها بدل أن يقوم الشريف بذلك"¹. وإذا كان القائم بأمر الله قد فشل في مسعاه تجاه داوود بن مالك في سوس، فإنه فشل أيضا في إقناع القائد يحيى أوتعفوف بالتخلي عن خدمة البرتغاليين، والانضمام إلى صفوف المقاومة؛ وذلك بشهادة الحسن بن محمد الوزان، الذي كان وسيطا في هذه المحادثات لما التقى يحيى أوتعفوف في قرية تومكلاست للمرة الثانية بعد سنوات طويلة من اللقاء الأول، إلا أن القائد المسفيوي لم يغير مواقفه، وبقي على عهده تجاه الملك البرتغالي².

وهذا يعني أن البرتغاليين قد نجحوا فعلا في استمالة بعض الزعامات القبلية في مختلف المناطق المغربية، وأن الملك مانويل الأول كان يهدف إلى أجرأة سياسة البقع الزيتية في المناطق التي يستهدفها؛ لذلك أولى البرتغاليون عناية كبيرة لهذه

¹ مجهول (جندي برتغالي)، تاريخ سانتا كروز -أكادير: نص برتغالي من القرن السادس عشر، 24 (الهامش رقم 22)

[ترجمة أحمد صابر] مراكش: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ط. 2، 2017.

² وصف أفريقيا، 1/ 126، الهامش رقم 36.

الاستراتيجية، ودعموا هذه الفئات بما يلزم من العون والمساعدة، وباتت هذه السياسة تعطي أكلها من خلال التثبيت إلى حد الموت بالولاء للتاج البرتغالي. وهذا ما نلمسه من خلال المعارك التي خاضها القائد يحيى أوتغوفت لصالح أولي نعمته البرتغاليين في مختلف مناطق الجنوب؛ بحيث إن أصدقاء انتصاراته وصلت إلى فاس، فحشي الوطاسيون من تداعياتها، وبادروا إلى إرسال تعزيزات عسكرية إلى المجالات المسفيوية بغية وضع حد لطموح هذا القائد سنة 1514م؛ لكن العساكر الوطاسية تلقت -مثل غيرها- هزائم متكررة، واضطرت إلى العودة إلى فاس دون أن تحقق مبتغاها¹. وعلا نجم أوتغوفت في سماء دكالة وعبدة، واستمال عددا كبيرا من زعماء القبائل الذين حذوا حذوه فيما يهم ارتباطهم بالعرش البرتغالي، وخدمة مصالح لشبونة في المغرب، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، "القائد بروان بقبائل أولاد مطاع، وأخيه عزو شيخ قبائل عبدة، والقائد يعقوب الغربي زعيم قبائل الغربية، والقائد بونيرة والقائد محمد موزاند في المجالات الدكالية والعبدية"²؛ بل إننا قمنا بعدّ زعماء العشائر، وشيوخ القبائل ووجهاء الدواوير الذين كانوا يتعاملون مع القائد يحيى أوتغوفت، وتفاجأنا أن مجموع المتعاملين معه فاق 542 متعاوناً، ممن كانت لهم به علاقات مصلحة بسبب الكلف والجبايات التي كانت سلطات المسيحيين البرتغاليين قد فرضتها على مجتمعات دكالة وعبدة والشياضمة، وكلفت القائد يحيى بجمعها³.

¹ «القائد أوتغوفت "خديم" المستعمر البرتغالي»، 54.

² الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 74.

³ انظر جميع أساء هؤلاء ضمن سجلات الضرائب التي صمّتها الأستاذ بوشرب في دراسته حول دكالة والاستعمار البرتغالي، 519-486.

القائد يحيى أوتغوفت تشبه بالسلطين وطمح في الوصول إلى السلطة في مراكش بعدما وشحه الملك البرتغالي مانويل الأول بوسام عسكري رفيع في لشبونة

تحدث المظان التاريخية عن التحولات التي عرفتها شخصية أوتغوفت بموازاة تلك النجاحات والانتصارات التي حققها على أرض الواقع، والتي أظهرت مدى عبقريته الحربية، وقدراته السياسية الهائلة، فكبرت مطامحه، وسمت أهدافه، وصارت له حظوة كبيرة في البلاط البرتغالي، وبات اسمه يجري على لسان الخاص والعام في لشبونة وفي المغرب، وبدأ "يرنو إلى بسط سلطته على دكالة والشياظمة والحوز والتربع على عرش مملكة مراكش، كخطوة في اتجاه تحقيق حلم حكم المغرب، وهذا ما جعله يتلقب بألقاب السلطين، ويصر على معاملته كسلطان بين بني جلدته، إذ كان يخرج في موكب ومراسيم شديدة بمواكب ومراسيم السلطين، والناس تهتف بحياته وتبتهل أن يحفظه [الله] ويرعاه ويسدد مرماه، كما كان يفرض على العامة والخاصة تقبيل يديه والركوع أمامه"¹.

ولم يتوقف هذا القائد عند هذا الحد وحسب؛ بل تعدى ذلك بكثير، وطقق في اتخاذ عدة إجراءات، وإقرار جملة من القرارات المنفردة دونما الرجوع إلى السلطة البرتغالية، فلم يعد محتاجا إلى حاكم آسفي، وبات ينظر إليه وكأنه مجرد معاون له، يزوده بالعدة والمؤن والسلاح والجند من أجل مهاجمة أبناء جلدته من القبائل المغربية. وهذا يعني أن حكام البرتغال في المغرب لن يبقوا مكتوفي الأيدي أمام هذه التطورات المثيرة في شخصية خديمهم أوتغوفت، "فبدأوا يشوشون عليه في البلاط الملكي بالبرتغال، وأضحت جملة من الشكوك تحوم حوله من قبل الملك

¹ «القائد أوتغوفت "خديم" المستعمر البرتغالي»، 54.

إيمانويل الأول نفسه، فاستدعاه للحضور إلى لشبونة من أجل التأكد من المعلومات والبيانات الواردة في شأنه، فاستجاب القائد أوتغوفت إلى الطلب الملكي، وحل بالعاصمة البرتغالية في عام 1514، وطال مقامه بها نحو اثنين وعشرين شهراً¹. وهذه المدة كانت كافية ليتأكد الملك مانويل الأول من نوايا خديمه، فأثنى على أعماله، واقتنع بأدائه وحسن طويته، ومنحه ثقته من جديد، فأصدر أوامره عام 1516م تقضي بعودة يحيى أوتغوفت إلى المغرب، وعمل على "توسيمه برتبة عسكرية رفيعة، وتعيينه قائدا لكل المنطقة، وتمتيعه بصلاحيات سياسية وامتيازات مادية عديدة، وذلك عقب مقتل القبطان نونو فرناندش دي أتايد على يد حمو بن شحموط شيخ قبيلة أولاد عمران الجنوبية سنة 1516"².

وكانت المدة التي قضاها أوتغوفت في لشبونة كافية لكي تتراجع جملة من القبائل الدكالية عن خضوعها للبرتغاليين، وتعلن العصيان ضد حكامهم؛ بل تمكن بعض منها من قتل الحاكم دي أتايد؛ كما أن الوضع العام في الجنوب المغربي كان يعرف كثيرا من التغير والتبدل بفعل الحركة السعدية الناشئة التي كانت هي أيضا آخذة في التوسع والانتشار، ولاسيما بعد السياسة الجديدة التي أعلن عنها محمد بن عبد الرحمن تجاه القبائل؛ إذ إنه سارع إلى مكاتبه زعمائها، واستنهاض همم خاصتها وعامتها، وتحريضهم على الجهاد ضد البرتغاليين ومن يتعامل معهم.

وهذا أمر أقلق كثيرا القائد يحيى، ودفعه إلى نهج سياسة الحزم والشدة ضد "المارقين عن السلطة البرتغالية و"المرتدين" عن المسيحية في المجالات العبدية والدكالية، طمعا في إعادة المياه إلى مجاريها، ومد سلطته إلى أبعد حد لها،

¹ الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 75.

² «القائد أوتغوفت "خدم" المستعمر البرتغالي»، 54.

فتراجعت بعض القبائل عن مواقفها، وخافت سطوته وبطشه، في حين تشبث البعض الآخر بمواقفه، وخاصة بعدما حاول الأمراء الهنتاتيون الملمة شملهم، وتوحيد جهودهم، والتنسيق فيما بينهم من أجل الدفاع عن مراكزهم وضواحيها، ناهيك عن الجهود الإضافية التي بذلها القائم بأمر الله في مجال الشياظمة ضد المد المسيحي لمدة ناهزت عقدا من الزمن¹؛ إلا أن القائد أوتغوفت كان بالمرصاد لكل هذه التحركات، وأنزل ضربات موجعة بالهنتاتيين سواء في الجبل الأخضر، أو في أحواز مراكش عام 1517م، وباتت الحمراء قاب قوسين أو أدنى من السقوط في يده². وقد قام بتكوين شبكة من العلاقات المبنية على المصالح الذاتية، ترتبط به شخصيا، فجعل من نفسه عنصرا محوريا بالنسبة إلى كل من أراد قضاء مآربه، وتحقيق مصالحه. وقد اعتمد في هذه الاستراتيجية على أقاربه والمخلصين له، الذين كان يثق في ولائهم له؛ مثل نجليه علي أوتغوفت وعبد العزيز أوتغوفت، ثم صهره سليمان³، وبعض شيوخ أولاد عمران، وبنو عامر وبنو تميم وأولاد فرج، وأولاد عمران، وركراكة وغيرهم؛ إذ من خلال إلقاء نظرة على أسماء الأعيان الذين كانوا يرافقون القائد يحيى أوتغوفت إلى مقر الحاكم البرتغالي في آسفي من أجل تسليم الضرائب العينية والنقدية إلى المحتسب البرتغالي، يمكن أن نقف على شبكة ضخمة من الوسطاء المتعاملين مع أوتغوفت والمستفيدين من العلاقات معه والتقرب إليه؛ إذ فاق عدد المواليين له والمحسوبين عليه خمسمائة شخص من علية قوم المنطقة؛ مثل محمد أنليم، عروش، سعيد محمد، سيدي محمد أزدورو، يحيى

¹ الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 76.

² «القائد أوتغوفت "خديم" المستعمر البرتغالي»، 54.

³ القائد أوتغوفت "خديم" المستعمر البرتغالي 93-

عطال، حدوس وإبراهيم أزيروش من بني مآكر¹، ثم فاتح بولمة، عبد النبي بن سليمان، محمد بن الحسين وعمار بن حسن بن منبع من تازروت²، ثم عبد الله الفيظو، علي بولفام وعمار كروس من أكروز³، ثم سيدي رحمان شكوال، ابن إبراهيم، علي بن محمد وابن عبد الزييات من أبيرو ونامير⁴، ثم حسون، اوعلي بن زغانتر، عبد الرحمن بن كثير، ابن الشريف، غانم بن علي، إبراهيم بن عبو المغالي، الشواري، سليمان بن نهبير، عمار الجيم وبويد من قبائل عبدة⁵، ثم سيدي إبراهيم وسيدي محمد بن إسماعيل وسيدي علي بوبكر من حصن المصمودة بالشياضمة⁶، ثم إبراهيم بن سعيد، داود بن عبد الله، عبد الرحمن بن سعيد، امبارك بن علي، الحسين بن أحمد، موسى بن عمور، سعيد بن ناصر الدين، إبراهيم بن منصور والحسن بن سعد الدين من الكروان⁷، ثم سعيد أعلو، مبارك بن محمد، علي بن حسن، عبد الحق بن قسو، بوعدو، ابن اوداردين وحسن بن بوغوز من منطقة الجمعة⁸، ثم يوسف بن عمر، يحيى بن منصور وموسى بن محمد من تانمست من آيت سوطي⁹، ثم محمد حسن أورا، يوسف بن أحمد، أحمد ابن يحيى، بوجعة الحداد من سكياطة بالشياضمة¹⁰، ثم عبد الله بن أحمد، بوعدوس بن لحسن، صالح بن عيسى والحسن

¹ انظر ملحق الوثائق التي أوردها الأستاذ بوشرب في دراسته: دكالة والاستعار البرتغالي، 496، وخاصة الوثيقة المتعلقة بضرية بني مآكر.

² نفسه، 497، (ضرية تازروت).

³ نفسه، 498، (ضرية أكروز).

⁴ نفسه، 499 (ضرية أبيرو ونامير).

⁵ انظر ملحق الوثائق التي أوردها الأستاذ بوشرب في دراسته: دكالة والاستعار البرتغالي، م 500 (ضرية عبدة).

⁶ نفسه، 501 (ضرية حصن المصمودة).

⁷ نفسه، 502 (ضرية الكروان).

⁸ انظر ملحق الوثائق التي أوردها الأستاذ بوشرب في دراسته: دكالة والاستعار البرتغالي، 503 (ضرية الجمعة).

⁹ نفسه، 505 (ضرية تانمست).

¹⁰ نفسه، 506 (ضرية سكياطة بالشياضمة).

بن علي من منطقة ماركوز بالشيامة¹، ثم سعيد بن عبد الله، أحمد بن سعيد، مسعود بن أحمد ولحسن بن محمد من ثلاثاء ملول بالشيامة على نهر مرامير²، ثم عماد بن سليمان، رزوق بن فارس، سليمان بن عمر، ناجي بن سالم، وعلي بن سعيد من دواوير زواغة والشيامة³، ثم سيدي عميرة، عبد الله بن علي، يحيى بن إبراهيم، منصور بن عمر، علي بن محمد وعمر بن إبراهيم من قبائل الشرقية-عرب دكالة- (فرع أولاد يوسف)⁴، ثم التهامي بن أحمد وعبد الله بن علي من قبيلة أولاد سيطة⁵، ثم محمد بن حسون، عمر بن يوسف، بومالي، رحال بن أتيمة وعمر بن علي الهاني من منطقة تيط⁶، ثم علي بن فرجي، علي بن التهامي، التهامي بن فارس، إبراهيم بن إبراهيم ويعقوب بن فارس من أولاد فرج وأولاد إبراهيم⁷، ثم منصور بن إبراهيم، غني مكول، سليمان بن إبراهيم، ابن مازو، عنار وروفس من أولاد عمران مع الغربية وشجعة، وابن تمي، وكذلك حصونها: تاكرانت وعلزيماي والجابري وكراندو وتاكرات⁸، ثم سيدي محمد بن عبد الرحمن، أحمد بن يحيى، لحسن أنجوت، محمد بن بوحميده، علي زنان، إبراهيم بن لحسن، حدوز بن بوعزيز، سيدي محمد الشريف، ناصر بن سعيد بن عمور، سيدي بن القاسم الحضري، عبد الله زكرام، الطيب بن إبراهيم، علي البقال، علي أمجوط، ميمون

1 نفسه، 507 (ضريبة ماركوز بالشيامة).

2 نفسه، 508 (ضريبة ثلاثاء ملول).

3 نفسه، 509 (ضريبة دواوير زواغة والشيامة).

4 انظر ملحق الوثائق التي أوردها الأستاذ بوشرب في دراسته: دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س. ص. 511 (ضريبة قبائل الشرقية).

5 نفسه، 514 (ضريبة قبيلة أولاد سيطة).

6 نفسه، 515 (ضريبة عرب تيط).

7 نفسه، 515 (ضريبة أولاد فرج وأولاد إبراهيم).

8 انظر ملحق الوثائق التي أوردها الأستاذ بوشرب في دراسته: دكالة والاستعمار البرتغالي 516 (ضريبة أولاد عمران مع الغربية وشجعة).

أجوط، سيدي محمد بن يحيى، عبد الله اوسعيد بن الحسن عجانة، أحمد بن عبد العزيز، أحمد بن علي الجراري ومحمد بن الصديق من مدينة دكالة¹.

إذن، هذه الشبكة المتشعبة من أعيان وزعماء العشائر والقبائل والدواوير ومختلف التجمعات السكانية في مجالات دكالة وعبدة والشياضمة، هي التي كانت تتعامل مع القائد يحيى أوتغوفت؛ وذلك ما أكدته مختلف التقارير والمراسلات التي كانت تصدر عن حكام البرتغال في مدينة آسفي؛ بحيث إن مجمل الوثائق التي أعدوها خلال الفترة الممتدة من 1510 إلى 1519 جاءت متضمنة لاسم القائد يحيى أوتغوفت، رفقة مختلف أعيان تلك المجالات، وخاصة اللوائح التي كانت تهم مسألة الجبايات والضرائب والهدايا والأعطيات التي أوكلت مهمة جمعها وتسلمها إلى القائد أوتغوفت؛ إذ إن اسمه ظل على الدوام يتصدر لوائح أعيان القبائل وزعماء العشائر الذين كانوا يحضرون رفقته في مدينة آسفي للمثول أمام الحاكم البرتغالي ومن معه من المحتسبين ورؤساء العساكر والقائمين على تدبير الشأن المسفيوي².

ولعل هذه الدينامية وهذه الحركية وهذا النشاط الذي تميز به القائد يحيى أوتغوفت هو الذي منحه التميز والتفرد وسط كل من كان يتعامل مع السلطة البرتغالية في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16. وهذا الأمر انعكس إيجاباً على الوضع البرتغالي في المجال الدكالي؛ إذ بفضل هذه الشبكة الواسعة من الأعيان

¹ نفسه، 518 (ضريبة مدينة دكالة).

² انظر نص هذه المراسلات في الملحق الذي أعده الأستاذ أحمد بوشرب لمختلف الضرائب التي كان يدفعها سكان دكالة للبرتغاليين في آسفي. وهي نحو عشرين وثيقة مترجمة إلى العربية. انظر: دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س.. 426-519.

والمعاونين زادت مداخيل البرتغاليين من الضرائب النقدية والعينية في مجالات شاسعة جدا، وأصبحت خاضعة لنفوذ القائد يجي أوتغوفت، الذي باتت يده مبسوطة على المناطق الساحلية الممتدة من أزموور شمالا إلى موكدور جنوبا؛ كما أن نفوذه ابتعد عن السواحل، ووصل إلى غاية المجالات الجنوبية لسهل الشاوية على ضفاف نهر أم البيع، ناهيك عن مجال هسكورة (هضبة الرحامنة)، والجبل الأخضر، وبنو تميم وبنو عامر، ومجالات الشياضة، ومرتفعات تانسيفت على مسافة قليلة من مدينة مراكش¹.

وقد استقصت بعض الدراسات أثر هذا التوسع البرتغالي على الخزينة البرتغالية بفعل الجهود المضنية التي بذلها القائد يجي أوتغوفت ومن معه خدمة للملك مانويل الأول، واستنتجت أن حضور هذا القائد في المجالات المذكورة كان له تأثير قوي على التزام القبائل بدفع الضرائب المفروضة عليها من قبل المسيحيين؛ كما أن استخلاص تلك الجبايات بات أكثر انتظاما وأقل صعوبة مما كان عليه مع الحاكم دي أتايد. وهذا ما تظهره مضامين التقارير التي أعدها محاسبو آسفي في الفترة التي برز فيها القائد يجي أوتغوفت على الساحة السياسية للمجال الدكالي، والتي امتدت تقريبا من 1510 إلى 1519؛ بحيث إن استقصاء مضامين تلك التقارير يظهر بما لا يدع مجالا للشك أن مداخيل البرتغال كانت غير منتظمة وضعيفة ومتذبذبة قبل 1515م؛ لأن أوتغوفت لم يكن قد فرض نفسه بالشكل الذي يلزم على مجتمعات دكالة؛ لكن بعد ذلك التاريخ، وبعد أن منحت سلطات لشبونة صلاحيات واسعة لهذا الرجل زادت المداخيل، وتنوعت الضرائب، وانتظمت

¹ دكالة والاستعمار البرتغالي، 78 و229.

مواقبتها. وفرض أوتعفوفت على دافعيها أن يقدموا إلى البرتغاليين عددا من الرهائن من أبناء الأعيان وزعماء العشائر ضمانا لوفائهم بما التزموا به. وهذا أمر جعل عليه قوم دكالة وعبدة والشياطمة تتزلف للقائد أوتعفوفت، وتخطب وده خشية سطوته، وخوفا من إرهابها بضرائب إضافية، وكلف زائدة عن اللزوم¹.

قتل القائد يحيى أوتعفوفت ووضع حد للمشروع البرتغالي في دكالة وعبدة والشياطمة

تزامنت توسعات القائد يحيى أوتعفوفت نحو مراكز وضواحيها مع مستجدات هامة عرفتها الساحة السياسية في جنوب المغرب، وخاصة بعد الإعلان عن وفاة زعيم الحركة السعيدة محمد بن عبد الرحمن، القائم بأمر الله، في منطقة أفوغال سنة 1517م، وانتقال أمر السلطة إلى ابنه أبي العباس أحمد الأعرج الذي كان عليه أن يتم مشروع أبيه على مستوى تحرير البلاد وإيقاد العباد من التمسيح والتنصير، فجعل أولى أولوياته وضع حد للقائد يحيى أوتعفوفت وكل من يتعامل معه، فأصبحت الحرب سجالا بين الطرفين، ونهج أحمد الأعرج تكتيكا محكما من أجل التصييق على أوتعفوفت؛ بحيث إنه تعامل مع الأمراء الهنتاتيين، ونسق مع القبائل الراضية للخضوع إلى السلطات البرتغالية، وبث عيون في المجالات الخاضعة لنفوذ القائد يحيى؛ مثل قبائل أولاد عمران، وأولاد سبيطة، وأولاد يعقوب، وبني تميم، وبني عامر. وكثف من بعث الرسائل والكتب الى مختلف المناطق، حاثا

¹ انظر مضامين التقارير التي أعدها محاسبو أسفي حول الجبايات في المجال الدكالي والعبدي من 1510 إلى 1519 ضمن ملحق الوثائق الذي ضمنه الأستاذ أحمد بوشرب دراسته حول: دكالة والاستعمار البرتغالي، م.س.ص. 426-519.

الناس على ضرورة التثبيت بعقيدتهم، وعدم الانصياع إلى رغبة النصارى، محذرا إياهم من مغبة تكرار ما جرى في الأندلس، وما لحق أهلها من تسيح ومسح للهوية وطمس للشخصية وإذابة في حلف الصليبية الكاثوليكية التي أضحت ضاربة أطناها في المجتمعات الدكالية والعبدية، وبدأت مخاطرها تدق أبواب حاحا والشياضمة ومراكش.

وقد وجدت نداءات أحمد الأعرج آذانا صاغية في عدد من قبائل الشياضمة وعبدة ودكالة، سيما وأن الشريف السعدي ركز في خطابه على المعاناة التي يعانيها السكان بفعل الضرائب الثقيلة التي فرضها عليهم القائد يحيى أوتغوفت، وبسبب نهج الشدة في جمعها، واستخدام القوة في استخلاصها، وإرغام المعنيين بها على تقديم مزيد من الضمانات بخصوصها، حتى أنه لم تعد هناك قبيلة من تلك القبائل لا يوجد لها رهائن من أبناءها لدى البرتغاليين. وهذا العامل كان سببا في اقتناع مجتمعات دكالة وعبدة وغيرها بضرورة التخلص من القائد أوتغوفت، فبدأت بعض العشائر تتراجع عن ارتباطها به، وباتت تتحين أي فرصة للانتقام منه ووضع حد لوجوده بين ظهرانيها.

وتزامنت هذه التحولات في مواقف تلك القبائل مع الاستعدادات التي كان يجريها القائد يحيى أوتغوفت من أجل تنظيم هجوم شامل ونهائي على مدينة مراكش بغرض تملكها وإعلان نفسه سلطانا عليها، فعسكر بجنوده في مناطق عبدة؛ إلا أن تلك الحملة لم تكتمل بفعل الأخبار السيئة التي وردت عليه، والتي كان مفادها أن قبيلة أولاد مطاع الموالية له تعرضت لهجوم مباغت من قبل جملة من فرسان الأمير إدريس المنحدرين من قبائل تادالا وهسكورة (الرحامنة)، وأن

ذاك الهجوم أودى بأحد أشهر مساعديه والموالين له، وهو القائد بروان؛ لذلك قرر القائد أوتعفوفت العذول عن الاستمرار في حركته نحو مراكش، والعودة من حيث أتى من أجل تقديم العزاء إلى أهالي الفقيد، وخاصة أخاه الشيخ عزو، أحد أعيان قبائل عبدة، والانتقام من القتلة ومن يدعمهم ويقف وراءهم¹.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن هذا الحدث كان مناسبة للإيقاع بالقائد أوتعفوفت وقتله بعد أن نُصب له كمين لم يقو على الإفلات منه؛ إذ إنه لما وصل إلى دار العزاء² وأثناء تحلقه حول مائدة العشاء دخل عليه شخصان يُدعيان عسو وغان، ادعيا أنهما شيخان من قبيلة أولاد عمران جاءا لتعزيتته وتقديم العون لحملة، وما أن أنسا غفلة منه حتى وجها إليه طعنات قاتلة أسقطته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة³؛ لكن هناك روايات تاريخية أخرى تخالف هذه الرواية بخصوص مقتل القائد يحيى أوتعفوفت، والظروف التي تم فيها القتل؛ إذ تشير بعض الكتابات إلى أن تسلط هذا الرجل، جعل أعداءه يتكاثرون، سواء من قبل القبائل الدكالية، أو من طرف بعض تجار النصارى الذين تضايقوا من تصرفاته وأحواله بفعل تعارض مصالح الطرفين، ناهيك عن المشاكل التي كانت له مع حكام آسفي، وخاصة القبطانيين أتايد وماشكرنياش. كل هذه العوامل جعلت بعض القبائل تتمرد عليه، "فثار الأعراب ضده ونهبوا ما يملك بسرنو. ولما انتقل إلى آسفي وجد هناك عداوة أكثر. فلجأ إلى عبدة فوجدها كذلك أسوأ، ففر أتباعه وبقي لوحده إلى أن استفرد به بعض شيوخ عبدة وقتلوه شر قتلة"³.

¹ الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، 77.

² «القائد أوتعفوفت "خديم" المستعمر البرتغالي»، 55.

³ «مدينة يحيى أوتعفوفت بقرية سرنو»، 3.

وما أن شاع خبر مقتل القائد يحيى أوتغوفت عام 1519م، حتى أعلنت القبائل التمرد على السلطة البرتغالية، وانطلقت موجة هائلة من الثورات منددة بالتسلط النصراني وأهدافه البغيضة في مجالات عبد ودكالة. وصل مد تلك الثورات إلى حاحا والشياطمة وأحواز مراكش. واستغل أبو العباس أحمد الأعرج حادث اغتيال خديم البرتغال، وشرع في توجيه قواته نحو آسفي من أجل تحريرها من يد النصارى. وتكللت جهوده بقتل القائد العسكري غارسيا باريرا (Garcia Barrira)، وأرغم النصارى على الانسحاب منها تدريجيا بعد تغلبه عليهم عام 1526/933هـ؛ لكن التحرير النهائي لها لم يتم إلا في سنة 1541م، أي في التاريخ ذاته الذي حررت فيه سانتت كروز من قبل محمد الشيخ المهدي¹.

وأكسبت هذه العمليات الجهادية في آسفي الشريف السعدي، أحمد الأعرج، سمعة كبيرة بين قبائل الجنوب، وسهلت عليه مهمة الدخول إلى مراكش، والتخلص من أمراء هنتاتة الذين كانوا يسيطرون عليها²، وخاصة الأمير الهنتاتي مولاي ناصر بوشنتوف الذي قتله الأعرج بعد أن دخل إلى المدينة، وأعلن نفسه أميرا عليها، وملكها نهائيا³. وهو ما يعني أن التخلص من القائد يحيى أوتغوفت كان عاملا من عوامل نجاح الحركة السعدية في مراكش، وضواحيها، وأن قتل هذا الخديم البرتغالي أكسب المجتمعات القبلية من مراكش إلى آسفي ومزغان ثقة كبيرة في قدرة الأشراف السعديين على تخليص الناس مما هم فيه من هم وغم، وتجنبيهم خطر

¹ الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث،.. 77.

² الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، 27.

³ أوغيسست (كور)، دولة بين وطاس (1420-1554).. 94.

التنصير والتمسيح، وإبعادهم عن مصير الأندلس الذي شكل درسا قاسيا لكل مسلم في المشرق والمغرب، وباتت ذكره تؤلم كل من نظر في أحوال المهجّرين والمطرودين من الأندلس نحو بلدان شمال إفريقيا عامة، وإلى المغرب بصفة خاصة.

خاتمة: اعتمادا على البيانات والمعلومات التي أوردناها أعلاه، يمكن الخروج بجملة من الاستنتاجات حول القائد يحيى أوتعوفت، ومنها بالأساس نجاح السلطة البرتغالية في استمالة بعض الزعامات القبلية في المغرب، والعمل على أجراً مشروعها السياسي والديني في المجالات المغربية؛ بحيث إن القائد يحيى لا يشكل حالة معزولة، وإنما هناك نظراء له في مختلف المجالات التي سيطر عليها البرتغاليون طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين؛ مثل القائد يعقوب الغربي زعيم قبائل الغربية، والقائد بونهيرة والقائد محمد موزاند في المجالات الدكالية والعبدية، والقائد عزو شيخ قبائل عبدة، والقائد بروان بقبائل أولاد مطاع، والقائد الناصر والقائد مالك بن داوود في الصقع السوسي؛ بل إن البرتغاليين نجحوا في استمالة حتى بعض الأمراء والملوك السعديين في نهاية القرن 16؛ مثل السلطان السعدي محمد المتوكل بن عبد الله الغالب بن محمد الشيخ المهدي، الذي استعان بالملك البرتغالي الدون سبستيان من أجل إعادته إلى عرشه مقابل أن يمنحه المناطق الساحلية الأطلسية في شمال غرب المغرب، بعد طرده من قبل عمه عبد الملك المعتصم بالله من فاس عام 1574م. ولعل هذه الزعامات أو النخب المحلية التي كانت لها علاقة مع البرتغاليين تستوجب أن تفرد لها دراسات خاصة لتسليط الضوء عليها، وإبراز مدى تأثيرها على محيطها، سيما وأن هذه الظاهرة عادت إلى التجلي والبروز في بلاد المغرب مرة أخرى خلال نهاية القرن

التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عندما أصبح عدد كبير من القياد يحطون في
 جبل القوي الاستعمارية، ويخدمون الأجنات الإمبريالية في الإيالة الشريفة.

ويمكن أن نستنتج أيضا، اعتمادا على المعلومات السالفة، أن الوجود البرتغالي في
 آسفي ودكالة وعبدة لم يكن يهدف إلى السيطرة على السهول الساحلية فقط،
 وإنما كان البرتغاليون يطمحون إلى الوصول إلى مراكش، باعتبارها مدينة
 استراتيجية تمكن من يسيطر عليها من الوصول إلى السلطة السياسية في
 المغرب؛ مثلها مثل مدينة فاس التي ظلت على الدوام تقوم بهذه الوظيفة، وتنفذ
 هذه الأدوار القاعدية في التحكم في المسارات السياسية للقوى المتنافسة على
 السلطة في البلاد المغربية؛ كما نستخلص أيضا أن الوجود السعدي في الجنوب
 المغربي شكل درعا واقيا للمجتمع من التسلط البرتغالي، وأحبط مختلف المشاريع
 والرهانات التي كان البرتغاليون يطمعون في تحقيقها على أرض المغرب؛ إذ بفضل
 الجهود المضنية التي قام بها الأشراف الزيدانيون سلم المغاربة من مخططات التبشير
 والتنصير، وحافظوا على هويتهم تاريخا وحضارة وعقيدة، ولاسيما بعد انتصارهم
 التاريخي على البرتغاليين في معركة وادي المخازن عام 986هـ/1578م.

* البيليوغرافيا

-استيتو (عبد الله)، «الجواخ والسلطة والدين في المغرب زمن الوطاسيين: جوانب من تاريخ المغرب العميق»، مقال في مجلة دراسات، عدد 22، 2019، [ص.ص. 161-198].
- استيتو (عبد الله)، الدولة السعدية: جوانب من تاريخ المغرب الحديث، أكادير: مطبعة B.J.Print، ط. 1، 2017.

-أنس (الصنهاجي)، «القائد أوتغوفت "خديم" المستعمر البرتغالي»، مقال في مجلة زمان، غشت - شتنبر، 2016.

-بوشرب (أحمد)، المغرب وإفريقيا في سياق كشف العوالم الجديدة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ط. 1، 1992.

-بوشرب (أحمد)، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481م - أكتوبر 1541م)، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1984.

-الحريري (محمد عيسى)، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني 610هـ/1213م - 869هـ/1465م، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت: ط. 2، 1408هـ/1987م.

- حنيقة (أبو) (القاضي النعمان)، [ت.363هـ]، كتاب المجالس والمسائرات، [تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي]، منشورات دار المنتظر، بيروت: ط. 1، 1996

- خلدون (ابن) (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون، المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (8 أجزاء)، [ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار]، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: ط. 1، 1417هـ/1997م.

-الدرجيني (الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد) [ت.670هـ]، طبقات المشايخ بالمغرب،
جزآن، [تحقيق إبراهيم طلاي]، قسنطينة: 1394هـ/1974م.

-السرغاني (راغب)، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، منشورات مؤسسة إقرأ
للتوزيع والنشر والترجمة، القاهرة: ط. 1، 1432هـ/2011م.

-السعدي (عبد الرحمن)، تاريخ السودان، [تحقيق وترجمة للفرنسية: هوداس]، طبعة
باريس: 1981.

-عبد الرحيم (عنبوري)، «مدينة يحيى اوتغوفت بقرية سرنو»، مقال منشور في موقع:
-غانم حافظ (أحمد)، الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية،
الإسكندرية: 2007.

-قدوري (عبد المجيد)، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة
التجاوز)، [منشورات المركز الثقافي العربي]، الدار البيضاء: ط. 1، 2000.

-كريم (عبد الكريم)، المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات
السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، [منشورات جمعية المؤرخين المغاربة]، الرباط:
1427هـ/2006م.

-كور (أوغيست)، دولة بين وطاس (1420-1554)، [ترجمة محمد فتحنا] الدار البيضاء:
مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة
نصوص وأعمال مترجمة، رقم 12، ط. 1، 2010.

-مجهول (جندي برتغالي)، تاريخ سانتا كروز -أكادير: نص برتغالي من القرن السادس
عشر، [ترجمة أحمد صابر] مراكش: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ط.
2، 2017.

-المقريري (تقي الدين أحمد بن علي)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، [تحقيق جمال الدين الشيال]، جزآن، القاهرة: ط.3، 1416هـ/1996م.

-الناصرى (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 8 أجزاء، [تحقيق أحمد الناصرى، أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق]، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001.

-الوزان (الحسن بن محمد)، [المعروف بليون الإفريقي]، وصف إفريقيا، جزآن، [ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر]، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1983.